التعليم الدينيّ في المدارس

الأب أنطوان ملكي

في مجتمعِنا أربعة مصادر للتربية الدينيّة عند الأولاد: البيت، والكنيسة، والمدرسة، ووسائل الإعلام. تقع على البيت المسؤوليّة الكبرى، لكونِه هو مَن يحدّد مدى تأثير الكنيسة على الأولاد، وهو مَن يختار المدرسة ويحدّد المقبول والمرفوض من وسائل الإعلام. أمّا وسائل الإعلام فتحملُ روحَ هذا الدهر الذي إمّا يقوم ضدّ الدين، أو يحمل الدين مشوَّهًا، كأن يصير عيد الميلاد عيد البابا نويل، وعيد الفصح عيد البَيض، وغير ذلك، إضافةً إلى كثافة فكر العصر الجديد (New Age)، حيث يصعُب إيجاد شبكةٍ أو محطّةٍ لا تبثُّ برامج السِّحر والشعوذة وأفلام الخرافات التي لا تزرع في فكر الأولاد إلّا الوهم والخيال السلبيّ، حتّى لا نذكر الخوف والرعب والكوابيس. هذه الخرافات، وإن لم تكن تعليمًا دينيًّا، تحمل إشاراتٍ متى ربطَها الولد بما يتعلّم عن الإيمان، يتشوّه الإيمان نتيجة اختلاطه بهذه الأفكار الخبيثة. فهذا الفكر يجعل الولد أكثر تقبُّلاً للتنجيم والسِّحر والاعتقاد بالقوى الخارقة، ما يُسهِّلُ عليه الاتّكال عليها، وهذا يتنافى مع الإيمان الصحيح. وما يجعل الأمر أكثر خطورةً أنّ هذا التوجُّه يتخطّى وسائل الإعلام والاتّصال، إلى الكتب المدرسيّة. فكتب أدب الأطفال مثقَلةٌ بقصص الجنيّات والخرافات. وأسوأ ما في هذه القصص أنّها توحي إلى الأولاد بوجود جنيّاتٍ صالحات، ما يجعلهم أكثر تقبُّلاً لهذه الجنيّات، لا بل أكثر تشوّقًا إليها. وهنا يأتي دور المصدر الثالث للتربية الدينيّة الذي هو المدرسة. فالمدرسة، سواء قدّمَت تعليمًا دينيًّا أم لم تقدّم، تؤثّر على تربية الأولاد دينيًّا وإيمانيًّا. وهنا يأتي دور الأهل في أن يختاروا أيّة مدرسةٍ يريدون أولادهم فيها، وأيّ منهاجٍ إيمانيّ يريدون لأولادهم أن يتبعوا.

فالمدرسة التي تقدّم تعليمًا دينيًّا لا بدّ من أن تقدّم ما تؤمن به إدارتها. من هنا، من الطبيعيّ ألّا تقدّم المدارس التي لا تنتمي إلى كنيستنا تعليمًا متطابقًا مع إيماننا على نحوٍ كامل. يبقى أنّ مدارسنا تقدّم إيماننا بشكلٍ مباشر وغير مباشر. فأولادنا يتلقّون التعليم الدينيّ غير المباشر في كلّ لحظة. كلُّ ما تقوم به المدرسة له تأثيرٌ على تشكُّلِ موقفِ الأولاد الإيمانيّ: طريقة معاملتهم، عدم التهاون مع قلّة الأخلاق، منطق الإدارة والمعلّمين، ثياب العاملين في المدرسة، نوعيّة النشاطات التي تُنظّمها، ومحتوى التعليم بحدّ ذاته. فكتب العلوم والتاريخ والأدب تحمل تعليمًا دينيًّا غير مباشر، على المدرسة أن تعرف ما تختار منه. أمّا بالنسبة إلى

التعليم الدينيّ المباشر، فثمّة عددٌ من الأسئلة التي من المفيد طرحها: ما جدوى القدّاس الأسبوعيّ في المدرسة للإجابة عن ما يدور في فكر التلاميذ؟ ما جدوى تحويل ساعة التعليم الدينيّ إلى ساعة ترتيل؟ أيّ كتابٍ نستعمل في التعليم الدينيّ وأيّة لجانٍ تربويّة ومنسّقين يسهرون على اختيار هذا الكتاب؟ لماذا تُعطى سائر ساعات الدوام أهمّيّة، فيتمّ اختيار أفضل الكتب والمعلّمين ذوي الاختصاص، فيما لا تخضع ساعة التعليم الدينيّ للتقييم، ونُعطيها لمَن نحتاج إلى إكمال دوامه؟ أغلب الأولاد في المدرسة لا يناقشون إيمانهم مع أهلهم، أو يأتون من رعايا ليس فيها تعليمٌ دينيّ ولا حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة، فمَن يُعطيهم الفرصة لطرح أسئلتهم إن لم تفعل المدرسة؟ أليس الصفّ، لا سيّما بالنسبة إلى المراهقين، المكانَ الذي يُحبّون أن يناقشوا فيه همومهم؟ أليس الصفّ مكانًا مُلائمًا لتفتح فيه الكنيسة حوارًا مع مراهقيها؟

من الضروريّ أن يُعطى الوجه البشاريّ للمدرسة حقَّه، فلا يُستَثنى أيُّ صفّ من ساعةٍ يُتاحُ خلالها للأولاد الاحتكاك مع آباء روحيّين ومعلّمين مؤمنين مختَبَرين دارسين. فساعة التعليم الدينيّ، وإن يكن منهاج الدولة لا يلحظها مباشرة، ينبغي أن تكون ثابتةً في منهاج مدارسنا، وأن تُعطى حقّها. وإلّا فما الفرق بين مدارسنا وغيرها من المدارس؟ وهنا دور الكنيسة التي هي المصدر الأوّل للتعليم، من خلال حياتها في رعاياها ومؤسّساتها وحركتها. فالبيت ينقل تعليم كنيسته التي تحضنه وترعاه وتؤمّن له المدرسة التي تكمّل عمله. هذا ما يُرجى وهذا ما يكون إن صمدَت المدرسة في وجه فكر هذا الدهر، ووعَت مسؤوليّتها نحو الكنيسة ونحو التلاميذ. أن تُدار المدارس كمصالح وشركاتٍ ليس أمرًا مسيحيًّا، وأن تكون الأخلاقُ وحدها مقياسَ اختيار القيّمين، من إداريّين ومعلّمين، لا يكفي. فالشفافيّة والتهذيب والصدق ليست قيمًا إضافيّة، بل هي أبسط ما يُطلَب ممّن يُمثّل الكنيسة. لا ينبغي أن يغيب همُّ البشارة من أمام أعيُن العاملين في مدرسة الكنيسة كلّهم. وهنا نعود إلى دور البيت في عمليّة التعليم الإيمانيّ. فالأهل، متى اختاروا لأولادِهم مدرسة الكنيسة، عليهم أن يتعاملوا كشُركاء ومسؤولين لا كزبائن، وأن ينفتحوا على الإدارة وينقلوا إليها ما يعانون أو يتساءلون عنه. وعلى الإدارة أن تستمع لهم وتقبل ما يقولون وتتعاون على التغيير. على الأهل أن يفهموا أنّ كلّ إنسانٍ معرّضُ للخطأ، وكلّ مؤسّسةٍ معرَّضةٌ للخطأ. ومتى وقع الخطأ، لا يكفي التململ، بل من الضروريّ التحرُّك لإصلاح ما يمكن إصلاحه والحدّ من انتشار الخطأ، سواء بالحوار مع الإدارة أو بنقل معاناتهم إلى المطران الذي هو المدير الأعلى لكلّ المدارس.

* *نشر هذا المقال للمرة الأولى في العدد الخامس، شباط ٢٠١١، من مجلة التراث الأرثوذكسي Orthodox Legacy.*